

I — الدّس الشّعوبي بالأندلس وموقف العرب في مجابهته

د. عبد الواحد ذنون طه
كلية التربية — جامعة الموصل

تمثّل الشّعوبية ، كما اصطلح على تعريفها بعض المؤلفين المحدثين⁽¹⁾ ، جملة الجهد الذي بذلته فئات مختلفة من جماعات غير عربية بهدف زعزعة الكيان العربي الإسلامي ، وإضعافه ، وإرباكه . ولصد تيار الثقافة العربية الإسلامية ، ونسف التراث . وهي إضافة إلى ما ذكر أعلاه ، تحاول التشكيك بدور العرب التاريخي ، والاستهزاء بالقيم والمثل العربية ، مقابل الإشادة بالإرث الحضاري الأعجمي ، والتمجيد بالقيم والسجايا غير العربية ، وإحياء الثقافات الأعجمية .

ولقد نشطت الحركة الشّعوبية ، كما هو معلوم ، في المشرق لا سيما في العراق . ولكننا نجد آثارها في بلاد أخرى . ولعل أهم الأماكن التي تأتي في الدرجة الثانية بعد العراق ، هي الأندلس التي تقع في الطرف الغربي للدولة العربية الإسلامية . وهي بذلك تشارك العراق أهميته بالنسبة إلى وقوعها على الأراضي العربية ، وباعتبارها ملتقى لكثير من التيارات الثقافية المتعارضة . هذا فضلا عن كونها موطن حضارة سابقة وأمجادٍ قديمة انتهت بالفتح العربي ، وغمرها الإسلام بقيمه السامية التي سادت على كل ما سواها من المفاهيم وألوان الحياة .

(1) عبد العزيز الدوري ، الجذور التاريخية للشّعوبية ، ط 4 ، بيروت ، دار الطليعة ، 1986 ، ص 12 ، فاروق عمر فوزي ، « حول طبيعة الحركة الشّعوبية » ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ج 2 ، م 36 ، بغداد ، 1985 ، ص 197 .

إن موضوع الشعوبية والدرس الشعوبي ليس جديدًا بالنسبة إلى الأندلس . فقد كان هذا الأمر مثار بحث منذ أواخر القرن 9/3 ، حينما قدّم المستشرق الألماني جولد=تسيهر بحثًا بعنوان «الشعوبية عند مسلمي الأندلس» ، إلى مؤتمر المستشرقين الثاني عشر ، الذي عقد بمدينة روما في أكتوبر عام 1899 ، ثم نُشر في مجلة الجمعية الألمانية الشرقية⁽²⁾ . وقد تحدث جولد تسيهر في هذا البحث عن الشعوبية في الأندلس ، موضحًا أهم العناصر التي يتألف منها المجتمع الأندلسي ، وهي عناصر كان لها دور في إذكاء النزعة الشعوبية ، لا سيما المولدين والصقالبة . ثم تناول بالتفصيل تحليل رسالة أحمد بن غرسية ، التي ستتحدث عنها لاحقًا ، في الشعوبية ، وصدى هذه الرسالة ، والردود التي جوبهت بها . وقد ترجم الأستاذ جيمس منرو هذه الرسالة وردودها في كتاب بعنوان : « الشعوبية في الأندلس » (كاليفورنيا ، 1970) . كما تناول الأستاذ الدكتور فاروق عمر فوزي هذه المسألة أيضًا⁽³⁾ ، فركز على الوسائل التي عبرت بها الشعوبية عن نفسها في الأندلس ، فأشار إلى القوة المسلحة المتمثلة فيما يسمى بحركة الاسترداد الإسبانية وإلى فترة الاضطهاد التي تعرض لها العرب المسلمون بعد سقوط غرناطة ، كما تطرق إلى الفكر ، والثقافة ، والأدب ، وهو المجال الذي أظهر فيه الشعوبيون في الأندلس أفكارًا معادية للعروبة والإسلام .

وعلى الرغم من أهمية المواجهة العسكرية التي دارت بين العرب المسلمين بالأندلس ، وبين الممالك الإسبانية ، وهي تمثل جانبًا من الوسائل التي اتخذها أعداء العرب للتعبير عن موقفهم المناوئ للوجود العربي الإسلامي ، فلن نتطرق إليها في هذا البحث ، لأنها تمثل موضوعًا كبيرًا مستقلًا يحتاج إلى الكثير من الدراسة والتعمق . لا سيما وأن هذه المجابهة استغرقت زمنًا طويلًا يناهز الثمانية قرون ، ابتدأت منذ السنوات الأولى للوجود العربي الإسلامي في الأندلس أواخر ق 7/1 ، متمثلة في الفلول المتبقية من القوط الذين انهزموا وتحصنوا بمنطقة الشمال الغربي من شبه الجزيرة

(2) I. Goldziher, «Die Su ùbijja unter den Muhammedanern in spanien» Zeitschrift der Deutschen.

Morgenlandischen Gesllschaft, Vol. 53, 1899, pp. 601-620.

(انظر ترجمة موجزة لهذا البحث أوردها الأستاذ عبد السلام محمد هارون : نواذر المخطوطات ، ط 2 ، القاهرة ، 1972 : 241/30-244).

(3) التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين ، ط 2 ، بغداد ، مكتبة النهضة، 1985 ، ص 191 - 204 .

الإيبيرية ، وانتهت باحتلال فرديناند وإيزابيلا لمدينة غرناطة عام (897 هـ/1492 م). وجرت بين هذين التاريخين سلسلة من الأحداث شكّلت سمة مميزة ، تمثّلت في اتحاد مختلف الدويلات الإسبانية التي نشأت في فترات مختلفة في الشمال والشمال الغربي أو الشمال الشرقي من شبه الجزيرة الإيبيرية . وكان هدفها الوحيد ، هو إنهاء الوجود العربي الإسلامي ، ومحو أي أثر للعرب وحضارتهم في الأندلس .

أما فترة الاضطهاد التي أعقبت سقوط غرناطة ، وتمثّلت في الكثير من المآسي التي تعرض لها الشعب العربي المسلم في الأندلس ، فهي أيضًا تمثّل وجهًا كالحا من الوجوه التي اتخذتها الشعوب في محاربة اللغة العربية ، والدين الإسلامي ، ومُجابهة العادات ، والتقاليد ، والأعراف ، التي نشأت عليها الأجيال الأخيرة من الشعب العربي في الأندلس . وتمثّل هذه الفترة التي استغرقت نحوًا من مئة وثلاثة وعشرين عامًا بعد سقوط غرناطة ، قصة شعب حيّ تم محوه من الوجود محوًا تامًا ، بحيث لم يعد لأفراده كيان مستقل باعتبارهم أمة ، على الرغم من أنهم كانوا ، ولثمانية قرون خلت ، أمة متميزة عن سائر الأمم . إن القهر الذي تعرض له الشعب العربي المسلم في الأندلس بعد سقوط غرناطة ، ونضال هذا الشعب ، ومقاومته ، وتشبّثه بالدفاع عن تراث الآباء والأجداد ، يمثل موضوعًا كبيرًا ، يكشف أساليب الشعوب الصليبية التي حاولت بكل ما أوتيت من قوة ، أن تمحو هذا الشعب من الوجود . ويبين في الوقت نفسه المقاومة العربية الإيجابية المتمثلة في الثورات والانتفاضات العديدة التي قام بها العرب للتخلص من الطغيان ، والمقاومة السلبية ، المتمثلة في التشبّث بالعقيدة الإسلامية والثقافة العربية ، والتي استمر عليها هذا الشعب ، بعد أن حوَصر ، وفقد كل أمل في التغلب عسكريًا على الأعداء . وقد نال هذا الموضوع أيضًا اهتمام العديد من المؤرخين العرب ، فألفوا فيه كتبًا قيمة ، ودراسات رصينة⁽⁴⁾ . ولهذا سوف نكتفي بما أشرنا إليه ، لا سيما

(4) أنظر على سبيل المثال : محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ، ط 2 ، القاهرة ، مطبعة مصر ، 1966 ؛ محمد عبده ومقالة : محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها ، عمان ، مطابع دار الشعب ، 1977 ؛ أسعد حومد : محنة العرب في الأندلس بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1980 ؛ عادل سعيد بشتاوي ، الأندلسيون المواركة ، ط 2 ، دمشق ، دار أسامة للنشر والتوزيع والطباعة ، 1985 ؛ لوي كاردياك : الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون ، تعريب ، عبد الجليل التميمي ، تونس ، 1983 .

وإننا قد خصصناه ببحث مستقل ، نشر ضمن مطبوعات هيئة كتابة التاريخ ، بعنوان « حركة المقاومة العربية الإسلامية في الأندلس بعد سقوط غرناطة » (5) .

بقي إذاً أن نتحدث عن المجال الأخير الذي أظهر فيه الشعبويون أفكاراً معادية للعروبة والإسلام ، لا سيما في الفكر والثقافة والأدب . ولكن يحسن قبل ذلك إعطاء نبذة عن بداية الشعور الشعبوي في الأندلس ، وما هي الأسباب التي أدت إلى وجود هذا الشعور ، وما هي الفئات والعناصر التي تبنت هذه الحركة ؟ .

يتميز المجتمع الأندلسي بتعدد عناصر سكّانه ، واختلاف طبيعة تكوينهم . فبالإضافة إلى العرب ، والمغاربة من سكّان شمال أفريقيا الأصليين الذين عبروا إلى البلاد أثناء الفتح وما بعده ، هناك فئات أخرى ، منها ما ينتمي إلى سكان البلاد الأصليين ، وهم (العجم) ، أو المستعربون من النصارى ؛ ومنها ما جاء من خارج البلاد ، لا سيما الصقلية ، الذين ستحدث عنهم لاحقاً بالتفصيل . ونتيجة لسياسة العرب المتسامحة مع أهل البلاد ، فقد دخل الكثير منهم إلى الإسلام بعد الفتح ، فسموا بالمسالمة ، وأطلق على أبنائهم اسم المولدين . كذلك أطلق هذا الاسم على الجيل الجديد من الأبناء الذين ولدوا من آباء مسلمين وأمّهات إسبانيات . وقد ازداد عدد هؤلاء المولدين فأصبحوا يكونون نسبة عالية من سكان الأندلس . وكان هؤلاء ينتمون إلى طبقات اجتماعية مختلفة ، منها الفقيرة والمضطهدة في العصر السابق للإسلام ، ومنها الغنية التي تنتمي إلى التّلاء والزّراع ، وأهل الحرف وغيرهم . وقد احتفظت لنا المصادر الأندلسية بأسماء بعض الأسر المولدية الشهيرة ، مثل : بني مردنيش ، وبني غرسية ، وبني ردلف ، وبني أنجلين . وبني شبرقة ، وبني الجريج (6) .

ويمكن أن نلاحظ الميل إلى الشعبوية في نفوس بعض المولدين ، الذين شعروا بحيف في حقوقهم العامة ، فنقموا على العرب سيادتهم ، ومناصبهم وحكمهم البلاد ، فصاروا يحرّضون جماعتهم بشتى الوسائل بهدف تحسين وضعهم السياسي والاجتماعي ، متخذين من الذين في بعض الأحيان حجة للوصول إلى مثل هذه الأهداف . وقد حصل ذلك على سبيل المثال حينما استغل بعض المولدين الظروف السيئة لسكّان منطقة الرّض

(5) بغداد ، دار الشؤون الثقافية العامة 1988 .

(6) حيان بن خلف ، ابن حيان ، المقتبس ، نشر ، ملشور أنطونيا ، باريس ، 1937 ، ص 16 ، 70 ، 74 ؛ وقارن : السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، بيروت دار المعارف ، 1962 ، ص 1288 ، 129 .

جنوبي قرطبة ، فأجج نيران ثورة كبيرة على الأمير الحكم الأول (180-206 هـ/796-822 م). وقد استغلّ الفقهاء ورجال الدين لتحريض عامة المولدين للقيام على الحكم العربي ، والتمرد ومحاولة الاستقلال بحجة الطعن في سلوك الأمير الديني والأخلاقي .

وشجع المولدين على السير في اتجاه التمرد ومحاولة الاستقلال عن العرب ، وجودهم في مجموعات كبيرة في مناطق جغرافية تساعد على الانفصال والتمرد ، لا سيما في منطقة سرقسطة في الشمال الشرقي ، وطليلة في الوسط ، وماردة في الغرب . ويمكن أن نشير إلى مدينة طليلة هنا ، باعتبارها بؤرة لهذه الحركات التي تتسم بطابع الشوعية ، نظرًا إلى وجود أغلبية من المولدين بين سكانها . وكان هؤلاء يفخرون بعزّ هذه المدينة ومجدها ، وكونها عاصمة البلاد قبل الفتح ، فساهموا في كثير من الفتن والاضطرابات التي تهدف إلى شقّ عصا الطاعة في وجه الحكم العربي بالأندلس .

واتخذت حركات المولدين بعداً أخطر ، لا سيما حينما تولى أمراء ضعاف الحكم في قرطبة ، فنادى زعمائهم صراحة بالاستقلال عن العرب . ويُعدّ عمر بن حفصون من أشهر هؤلاء الذين خرجوا على السلطة الأموية . وتدلّ أقواله التي كان يحرض بها جماعته على الهدف الذي يسعى إليه ، وهو إسقاط دولة العرب في الأندلس ، فمن جملة أقواله بهذا الخصوص : « طالما عتّف عليكم السلطان وانتزع أموالكم وحملكم فوق طاقتكم وأذلتكم العرب واستعبدتكم . وإثما أريد أن آخذ بثأركم وأخرجكم من عبوديتكم »⁽⁷⁾ . ولم يأل ابن حفصون جهداً في سبيل تحقيق هدفه هذا ، حتى ارتد في أواخر أيامه علانية عن الإسلام ، واعتنق المسيحية ، وذلك محاولة منه لاستقطاب جميع العناصر الأخرى ، لا سيما المستعربين من النصارى ، وكسب دعم الدويلات الإسبانية في الشمال . وقد استمرت حركته هذه حقبة طويلة نسبياً حيث استمرت طيلة حكم ثلاثة من الأمراء الأمويين ، ولم تنته إلا في عهد الخليفة عبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله (300 — 350 هـ/912-961 م) ، الذي استطاع القضاء عليها ، وعلى بقيّة الحركات الانفصالية الأخرى⁽⁸⁾ .

(7) أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، نشر ، ليفي برونسفال و ج س . كولان ، لندن ، 1948 . وقد أعادت دار الثقافة نشره في بيروت : 114/2 .

(8) لزيادة التفاصيل عن حركة ابن حفصون ، أنظر : أمين توفيق الطيبي ، « قيام عمر بن حفصون

وناصر المستعربون من العجم حركة ابن حفصون ضد سلطة الحكم العربي في قرطبة ، وضد الجماعات العربية التي استقرت في مناطق الجنوب منذ الفتح العربي ، لأن العرب حظوا بامتيازات لم ترق للمولدين وأهل الدمة من العجم . وقد تميزت حركات الصراع بين هؤلاء المولدين ، ومن ناصرهم من المستعربين ، وبين العرب بالقوة والعنف . وعبرت عن نفسها بشكل واضح في النقائض الشعرية التي ركزت على العصبية ، حيث أشار الشعراء من الجانبين إلى مساوئ الطرف الآخر⁽⁹⁾ . ثم تطوّر الأمر بعد ذلك ، لا سيما بعد أن دخل عمر بن حفصون الصراع ، فأصبحت المسألة مجابهة علنية بين المولدين والمستعربين من العجم من جهة ، وبين العرب من جهة أخرى .

واتخذت مواقف بعض المستعربين المتطرفين في قرطبة أشكالاً واضحة تبدو فيها الحركة الشعوية موجهة ليس ضد السيادة العربية في الأندلس فحسب ، بل ضد الإسلام نفسه ؛ وبالذات محاولة النيل من شخص النبي الكريم محمد عليه الصلاة والسلام . وقد تزعم هذه الحركة بعض رجال الدين المتعصبين الذين صعب عليهم رؤية أثر التسامح العربي ، وانتشار اللغة العربية ، والثقافة الإسلامية بين الشباب والمثقفين الإسبان ، وقد أهملوا اللغة اللاتينية وآدابها ، وهي لغة الدين المسيحي آنذاك . وقد أدى هذا الأمر بالتدريج إلى ذوبان الحضارة المسيحية اللاتينية ، حتى بات من الضروري في بعض مناطق شبه الجزيرة الإيبيرية أن تترجم قوانين الكنيسة الإسبانية القديمة والإنجيل إلى اللغة العربية ليسهل استعمالها على المسيحيين . وقد أفرغت هذه الحالة غلاة المتعصبين من رجال الدين ، وعندما لم يفلحوا في وقف هذا التيار ، حاولوا بث الدعاية ضد الحكم العربي في الأندلس ، وإظهار الاستخفاف بالإسلام ، وسب نبيه ، والتقول عليه بالباطل إلى حد الشطط ، استفزازاً لمشاعر المسلمين وانتهاكاً لحرمة ديانتهم جهراً وبغير سبب . وقد خلقت هذه الهجمة الشعوية جواً من التوتر والاستفزاز وصل حداً دفع ببعض المتعصبين إلى اقتحام المساجد والاعتداء على المصلين . ونتيجة لهذا اضطرت حكومة قرطبة في أواخر عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم

== وَبَنُوهُ يُبَشِّرُ عَلَى الْإِمَارَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِقُرْطُبَةِ (267 — 315 هـ/880 — 928 م)، بحث نشر ضمن كتاب : دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس ، ليبيا — تونس ، الدار العربية للكتاب ، 1984 ، ص 120 — 150 .

(9) أبو عبيد الله محمد بن عبد الله بن الأبار : الحلة السرياء ، تحقيق ، حسين مؤنس ، القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، 1963 : 147/1 — 160 .

(206-238/822-852) إلى اتخاذ إجراءات شديدة لإزاء المحرّضين على الفتنة . ودعت إلى عقد مجمع ديني مسيحي في قرطبة يضم كل أساقفة الأندلس لبحث الحالة ومعالجتها . وقد توصّل المؤتمر إلى قرار بشجب الحركة وعدّها مخالفة لتعاليم الكنيسة⁽¹⁰⁾ .

وقد ازداد الشعور الشعوبي في الأندلس نتيجة لدخول عناصر أخرى غير عربية إلى المجتمع ، ومن أهم هذه العناصر : الصّقالبة . والمقصود بهؤلاء في الكتب الغربية سكان البلاد المختلفة من بلغاريا العظمى التي امتدت أراضيها من بحر قزوين إلى البحر الأدرياتي⁽¹¹⁾ . ثم توسّع العرب في استخدام لفظ الصّقالبة ، فأطلقوه على أرقائهم من أية أمة .⁽¹²⁾ وقد بدأ عدد هؤلاء الصّقالبة في الازدياد بالأندلس نتيجة لاستخدامهم في مجالات شتى ، لا سيما في الجيش . وازداد نفوذهم بمرور الزمن ، وأصبحوا يشغلون مناصب كبيرة في القصر والدولة . وقد بلغ بعضهم مبلغا كبيرا من القوة ، حتى تجرّأ أحدهم على إعلان العصيان على السلطة المركزية في عهد الأمير عبد الله بن محمد (275-300 هـ/88-912 م) . ومما يشير إلى الدور التآمري لهؤلاء ، اتفاق هذا المتمرّد ، واسمه (عبد الله بن غالب الأخرس) سرا مع المولدين في إشبيلية للقيام معه على السلطة العربية⁽¹³⁾ . ومع هذا فقد استمر الأمراء والخلفاء في الأندلس على استخدام هؤلاء الصّقالبة ، والإكثار منهم للحدّ من نفوذ بعض الزعماء

(10) ينظر عن هذه الحركة :

Levi-Provençal: histoire de l'Espagne Musulmane, Paris, 1950, Vol. I, pp. 225-236.

توماس آرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ، حسن إبراهيم حسن ، ط 3 ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، 167/1971 ؛ إبراهيم بيضون : الدولة العربية في إسبانيا ، بيروت ، دار النهضة العربية ، 1978 ، ص 244-251 .

(11) محمد بن علي ، ابن حوقل : صورة الأرض ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، 1979 ، ص 106 .

(12) أنظر : أحمد مختار العبادي ؛ الصّقالبة في إسبانيا ، مدريد ، مطبوعات المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، 1953 ، ص 8-9 .

(13) أحمد بن عمر العذري : نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، تحقيق ، عبد العزيز الأهواني ، مدريد ، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية ، 1965 ، ص 104-105 .

الأقوياء من العرب . وقد بلغ عدد هؤلاء الفتيان الصّقالبة بمدينة الزهراء فقط حين وفاة الخليفة الناصر لدين الله ، ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين رجلاً⁽¹⁴⁾ .

ويبدو أن كثيراً من هؤلاء قد احتفظ بلغته الخاصة ، بل أن بعضهم لم يتعلّم اللغة العربية ، لهذا فقد سمو بالخرس . ويدلّ هذا على عدم امتزاج بعضهم بالسكان ، ولا ينطبق ذلك بطبيعة الحال على كبارهم وزعمائهم الذين تولوا مناصب خطيرة في الدولة ، وأصبحوا يشكلون قوة يحسب لها حسابها ، حتى أنّهم كادوا أن يمنعوا تولية هشام الثاني بن الحكم المستنصر بعد وفاة والده سنة (366 هـ/976 م) . ومن أشهر هؤلاء الصّقالبة الذين برزوا في عهد الحكم المستنصر ، فائق ، وجوّذر الحكمي . وكان الأخير عالماً وأديباً ، برز في علوم اللغة العربيّة ومعانيها . وكان أحد فتيان الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر ، ويدعي فاتناً ، لا نظير له في علم كلام العرب وكل ما يتعلق بالأدب حتى أنّه ناظر الأديب اللّغوي صاعد بن الحسن البغدادي ، فظهر عليه وأسكنه⁽¹⁵⁾ .

ونظراً إلى العدد الكبير الذي أصبحت تضمه الأندلس من هؤلاء الصّقالبة ، فقد أصبح لهم كيان واضح في المجتمع ، لا سيما بعد أن تولوا المناصب العليا في الدولة ، وبرز منهم نخبة في مجال الأدب والثقافة العربية . فابتدأوا يفخرون بأنفسهم ، ويتعالمون على العرب بذكر فضائلهم ومناقبهم ، حتى أن أحدهم ، واسمه حبيب الصّقلبي ، ألف كتاباً بعنوان «كتاب الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصّقالبة» ، وذلك في زمن الخليفة هشام بن الحكم المستنصر . ويبدو من عنوان هذا الكتاب مقدار تعصب هذا المؤلّف لقومه . ومن المؤسف أنه مفقود ، ولكن ابن بسام الششتريني اطلع عليه ، وأشار إلى أنّه يحتوي على جملة من أشعار الصّقالبة ، ونوادر أخبارهم ، ومنهم غمارة الصّقلبي الفتى الكبير ، والصّقلبي ميسور ، ونجم الوصيف ، وغيرهم ممن يشتمل عليه ذلك التصنيف . ومما يؤسف له أن ابن بسام لم يذكر النوادر والأشعار التي جاءت في الكتاب معتذراً بقوله : « وشعرهم خارج عن شرطنا ، وليس من جمعنا »⁽¹⁶⁾ .

(14) ابن عذاري ، المصدر السابق : 232/2 ؛ لسان الدين محمد بن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الثاني ، الأندلس ، نشر ، ليفي برونفسال ، بيروت ، دار المكشوف ، 1956 ، ص 40 .

(15) أبو الحسن علي بن بسام الششتريني : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق ، إحسان عباس ، بيروت ، دار الثقافة ، 1979 ، ق 1 ، م 1 ، ص 34 .

(16) المصدر نفسه ، ق 1 ، م 1 ، ص 34 .

ويرى الدكتور أحمد مختار العبادي⁽¹⁷⁾ ، أن تجاهل ابن بسام لما ورد في الكتاب ربّما كان بسبب أن القصائد التي ذكرت فيه هي من قبيل الشعر الكلاسيكي الذي يتضمن الفخر على العنصر العربي ، وهو ما لم يعجب ابن بسام ، لا سيما وأن عنوان كتاب حبيب الصّقلي نفسه يظهر نزعه في إظهار فضل الصّقالبة على الأدب العربي نثرا وشعرا ، وتفوقهم على العنصر العربي في هذا المضمار . وربما كان هذا الكتاب من قبيل الدفاع لا الهجوم نظرا إلى قوّة العرب ودولتهم في الأندلس في تلك الحقبة⁽¹⁸⁾ . ولكن بمرور الزمن ، تطور هذا الدفاع وحل بدله الهجوم الصريح على العرب ومثلهم وقيمهم ، وذلك بعد انفراط عقد الدولة الأموية في الأندلس ، وظهور دويلات الطوائف ، وسيطرة الصّقالبة على مجموعة لا بأس بها من هذه الدويلات ، لا سيما في المناطق الشّرقية من البلاد .

وقد لجأ إلى هذه الدويلات الكثير من أجناس الصّقالبة ، والإفرنجية ، والبشكنس ، وأصبحوا كتلة واحدة قوية⁽¹⁹⁾ ظهرت فيها نزعات شعوبية واضحة كان لها أثر ملموس في الأدب الأندلسي إلى فترة متأخرة . وكان يجمع هذه الدويلات رابطة تحالف ، نظرا إلى كون مؤسسيها جميعا من ممالك الدولة العامرية وقد امتد سلطان هؤلاء الصّقالبة على الشاطئ الشرقي من نهر إبرو حتى ثغر المرية ، والجزائر الشرقية ، أي جزر البليار . ومن أهم هذه الدويلات ، دويلة المرية ، برئاسة خيران الصّقلي الذي استقل بها عام (403 هـ/1012 م) ، كما استقل في مدينة بلنسية مبارك ومظفر العامريان (407 هـ/1016 م) . أما مدينة دانية ، فقد استقل بها سنة (400 هـ/1010 م) قائد صقلي مشهور ، هو مجاهد العامري⁽²⁰⁾ .

ويبدو أن الجوّ العام في الساحل الشّرقى كله ، لا سيما في دانية ، كان ملائما للصّقالبة للعمل بحرية ، والتعبير عن آرائهم الشّعبية المعادية للعرب . وقد استغل هؤلاء عدم وجود أية سلطة سياسية عربية ، وتوفر الحماية من قبل الحكام الذين ينتمون إلى

(17) الصّقالبة في إسبانيا ، ص 15-17 .

(18) أنظر : إحسان عباس ؛ تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين ، ط 5 ، بيروت ، دار الثقافة ، 1978 ، ص 171 .

(19) ابن بسام ، المصدر السابق ، ق 3 ، م 1 ، ص 16 .

(20) للاطلاع على التفاصيل الخاصة بهذه الدويلات انظر : محمد عبد الله عنان : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ، ط 2 ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، 1969 ، ص 174 وما بعدها .

عناصر قرية منهم ، فتمادوا في إعلان كرههم ونقمتههم على العنصر العربي . وعلى الرغم من تشجيع مجاهد العامري للعلم والمعرفة ودراسة القرآن الكريم ، والجهاد في سبيل الله ، نرى أنَّ بلاطه كان يضم شعوبيين معادين للعرب ، من أمثال ابن سيدة ، صاحب كتاب « المخصَّص » ، الذي كان « شعوبياً يفضل العجم على العرب » (21) ، وأحمد بن غرسية ، صاحب أقوى صوت شعوبي عرفته الأندلس . وقد اشتهر هذا الأخير برسائله التي يفضل فيها العجم على العرب ، وهي الوثيقة الوحيدة التي بقيت إلى اليوم عن الحركة الشعوبية بالأندلس .

وقبل أن نفصل القول في هذه الرسالة ، يستحسن التمهيد بنبذة مختصرة عن أصل هذا الكاتب الشعوبي الذي ظهر في كنف مجاهد العامري في دانية . فهو ، حسب الترجمة التي يسوقها له علي بن سعيد المغربي (22) ، من أبناء نصارى البشكنس ، أو الباسك سبي صغيراً ، ورَبَّى في بلاط مجاهد العامري ، حيث اعتنق الإسلام ، وأصبح له شأن كبير هناك ، وعهد بتربيته وتأديبه إلى أبي العباس الجزييري (23) ، فضلع في العربية ، وأصبح من كبار رجال الدولة وعلمائها . وقد كتب ابن غرسية رسالته هذه مخاطباً الأديب أبا جعفر بن الخراز ، معاتباً له لتركه مدح مجاهد العامري ، واقتصاره على مدح المعتصم بن صمادح التجبي ، أمير المرية (24) ، ورسالة ابن غرسية هذه ، كما يقول ابن بسام (25) « ذميمة غرب في تسطيحها ، فلم يُسبق لكثرة غلظه فيها وزلله ، إلى نظيرها ، وذم فيها العرب ، وفخر بقومه العجم ، وأراد أن يُغرب فأعجم ... » .

وإذا ما اطلعنا على هذه الرسالة (26) ، نجد أن ابن غرسية لم يأت بجديد بالنسبة إلى أفكار الشعوبية في المشرق . ويبدو أنه استقى من تلك الأفكار أهم المسائل التي

(21) أنظر : هارون ، نواذر المخطوطات : 233/3 .

(22) المغرب في حلي المغرب ، تحقيق ، شوقي ضيف ، ط 2 ، القاهرة ، دار المعارف ،

1964 : 407/2 ؛ وانظر : أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوي ، كتاب الف باء ،

بيروت ، عالم الكتب ، بدون تاريخ : 350/1 .

(23) محمد بن عبد الله بن الأبار : المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي ،

القاهرة ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، 1967 ، ص 311 .

(24) ابن بسام ، المصدر السابق ، ق 3 ، م 2 ، ص 704 ؛ ابن سعيد ، المصدر السابق :

407/2 .

(25) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق 3 ، م 1 ، ص 704-705 .

(26) هناك مخطوط في مكتبة الأسكوريال باسبانيا تحت رقم (538) يتضمن هذه الرسالة وبعض

تطرق إليها الشعوب ضد العرب . فعلى الرغم من أنه لم يكن فارسياً ، ولا علاقة له بعجم المشرق والأكاسرة ، والسَّاسانيين ، نرى أنه يفخر بهم ، ويمجدهم ، ويرفع من شأنهم ، مقابل التقليل من قيمة العرب ، حيث يقول على سبيل المثال : « أما علمتم أن الدولة التوشترانية ، والمملكة الأرذشيرية بَقَرُوا أجوافكم ، وخلعوا أكتافكم ، ثم عطفوا ، ورأفوا ، وملَّكوكم الحيرة ، بعد عظيم الحيرة ، قُللاً ذُللاً ، تَتَخَيَّرُونَ البنات عند الييات ، مبهوراتٍ لا مهورات ، فبرم من ذلك غَسَّانكم وتُعمانكم ، وكان بَرُّمه سببا لدرء أمانكم ، فأصبح بعد جرِّ الدُّيول مدُّوسا بأخفاف الفُيُول » (27) ويدل هذا على أن مفاهيم الشعوبية ، وأفكارها كانت واحدة ، سواء بالشرق أو بالمغرب ، وهدفها هو التقليل من شأن العرب ، وتفضيل العجم والفرس عليهم ، حتى لو أنَّ الشعوبية المهاجم لا يمت بأية صلة إلى هؤلاء الذين يمتدحهم ويفضِّلهم على العرب . وكل ما يربطه بهم هو العداء السافر الذي يكنه جميعهم إلى العرب .

ولهذا يتَّسع مفهوم العجم عند ابن غرسية ليشمل قومه الروم ، أو بني الأصفر (28) ، بل مختلف العناصر غير العربية التي يمكن أن تنضوي تحت لائحة العداء الشعوبية للعرب في ذلك العصر . ولا يترك ابن غرسية ميزة خلقية أو صفة خلقية إلا ووازن بينها ، وفخر بها على العنصر العربي ، ففخر ببياض العجم على سمرة العرب ، وقابل بين حياة العرب القدامي بين الإبل والشاء ، وحياة الأكاسرة والقياصرة والأساورة في ظلال السيوف والرماح والدروع . كما فخر بقومه ذوي الأرومة الرومية والجراثومة الأصفرية ، أصحاب الأحساب والمجد العلي ، والنسب السري ، وأنهم لم يحترفوا الحرف المهينة « فمأسسنا قط قروداً ولا جِكنَّا بروداً » (29) . ويمجد شجاعتهم « إذا قامَت الحربُ على سَاقٍ وأخذت في اتساق ... بُصَّرَ صَبْرٌ تزدان بهم المحافل ، والجحافل ، قيول على خيول ، كأنها فيول ، كواكب المواكب ، نجوم الرجوم ، من العجم ضراغمة

الردود عليها ، وقد نشر المستشرق الألماني جولد تسيهر فقرات منه في بحثه الذي أشرنا إليه أعلاه . كما نشر كل من الأستاذين : عبد السلام محمد هارون ، وأحمد مختار العبادي ، نص الرسالة استناداً إلى مخطوط الأسكوريال والنص الذي أورده ابن بسام لها في الذخيرة (ق 3 ، م 2 ، ص 705-714) ؛ أنظر : هارون ، نوادر المخطوطات 246/3-254 ؛ العبادي ، الصقالية في إسبانيا ، ص 31-42 .

(27) نوادر المخطوطات : 250/3-251 .

(28) المصدر نفسه : 247/3 .

(29) المصدر نفسه : 247/3 .

الأجم ، بنو غاب المنتفون من كل غاب ، لم تلدهم صواحب الرّايات» (30) ويعرض ابن غرسية هنا ببغايا الجاهلية اللاتي كن يجعلن على بيوتهن رايات ليعرفن بها . ويفخر بقومه الذين ولدوا من سارة زوج النبي إبراهيم عليه السلام ، بينما يقلل من شأن هاجر ضرتها ، التي يعدها أمة « أمكم لأنما كانت أمة . أن تنكروا ذلك تلفوا ظلمة » (31).

ولا يكتفي ابن غرسية بهذه التهم الباطلة ، بل يستمر كعادة الشعوبيين في المشرق بالتنديد بالعرب ، والتقليل من شأنهم ، فينتهم بأنهم رعاة يحلبون المواشي ، حرفهم دنيئة ، ويكتفون بالشّهوات الدنيا ، كالطبل والزمر ، ومعاقرة الخمر ، ولبس الخشن من الثياب ، وأكل أردأ الطعام . وفي المقابل يمدح العجم ، ويعظم من شأنهم ، ويعير العرب بتخليصهم من أيدي الأحباش في اليمن «... فلهم عظيم الشأن ، واليد الطولى إذ تخلصوكم من أكفّ الحُبشان ، صنع منيع ، ومئة لا تشوبها مئة ، فيالها منحة ، لكنّها أعقبت محنة ، إذ صادفت كفرّة لأشكرة » (32) ، ويزيد ابن غرسية في نزعتة العنصرية ، فيتباهى بالعجم وبنزعتهم الأرستقراطية في الملبس والمأكل والمسلك ، وينسب إليهم العلوم الفلسفية « حُلُم عُلُم ذوو الآراء الفلسفية الأريضية ، والعلوم المنطقية الرياضية ، كحملة الاسترلوميقي [علم النجوم] والموسيقى ، والعلمة بالأرتماطيقي [علم العدد والحساب] ، والجومطريقي [علم المساحة والهندسة] ، والقومة بالألوطيقي والبوطيقي [الشعر] ... حسبوا أنفسهم على العلوم البدنية والدينية لا على وصف الناقة الفديّة ... » (33) ثم يختتم قائمة العيوب التي يعير بها العرب بالإشارة إلى فعلة أبي رغال في تعليم الأحباش طريق الوصول إلى مكة « وإذ أبو رغالكم قاد فيل الحبشة إلى حرم الله لاستصالككم » (34).

وخوفاً مما قد يشتم من كلامه مما يمس العقيدة الدينية ، لا ينسى ابن غرسية ، كعادة شعوب المشرق ، أن يتستّر وراء مبادئ الإسلام ، وحبّ الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام . وهو يحاول أن يفصل بين النّبي وقومه العرب ، بقوله إن التّبر من التراب ، والمسك بعض دم الغزال . ولكنه موقف مكشوف ، لا يخفى على أحد

(30) المصدر نفسه : 249-248/3 .

(31) المصدر نفسه : 247/3 .

(32) المصدر نفسه : 250/3 .

(33) المصدر نفسه : 252-251/3 .

(34) المصدر نفسه : 252/3 .

، فلا يمكن إنكار الأصل العربي الهاشمي للرسول ، على الرغم من محاولة ابن غرسية التّمويه في هذا الأمر بنسبته إلى إسماعيل وإبراهيم «لكن الفخر بابن عمنا ، الذي بالبركة عمنا ، الإبراهيمي النسب ، الإسماعيلي الحسب...»⁽³⁵⁾ . ومع هذا ، فإنّ ابن غرسية لا يلبث أن يكشف عن حقيقة كاملة ، حين يضيف معيّراً العرب بعبادة الأوثان قبل الإسلام ، مفتخراً بما كان عليه قومه ، ومن يفضلهم من العجم : « أما نحن فممن أهل التّلايت وعبادة الصّلبان»⁽³⁶⁾ .

إنّ هذه الجرأة المتناهية التي هاجم بها ابن غرسية مبدأ السيادة العقلية والسياسية للعرب ، استعملها ضد كل ما يمت إليهم بصلة ، لا يمكن أن تفسر إلّا بازدياد نفوذ الصّقالبة وسيطرتهم في منطقة الساحل الشرقي للأندلس . فلو أنّه كتب في مكان آخر يسيطر عليه العنصر العربي ، لما استطاع أن يكتب بمثل هذا الأسلوب دون أن يتعرض لعقابهم ونقماتهم .⁽³⁷⁾ وقد أثار هذا الأمر دهشة أبي الحجاج يوسف بن محمد البلوي ، الذي عاش بعد ذلك بنحو قرنين ، فقال : « والعجب من أهل ذلك الزمن كيف استقروا على هذه الفتن وأقروا هذا المُجتريء على هذا الاجترأ وما جاء به من الافتراء أم كيف أبلعوه ريقه وأوسعوا له طريقه ولم يهلكوه وفريقه... »⁽³⁸⁾ . ولكنه يستدرك فيفترض أن ابن غرسية كتب هذه الرسالة ، أو بعث بها سرّاً إلى جماعته ، ولم تشتهر إلا بعد وفاته ، وحينئذ ردّ عليها من وقعت بيده .

والواقع أنّ ردود الفعل كانت قوية جداً إزاء هذه الرسالة ، ولكنها ردود فعل أدبية ، حيث لم يكن هناك سلطة عربية يمكن أن تعاقب مثل هذا الشعبي . وتدّل كثرة الردود من جانب واحد على هذه الرسالة ، أنّ الشعور بالعروبة كان قويا بالأندلس على مدى الزمن ، وأنّ السند الشعبي لم يكن على شيء من القوة الأدبية⁽³⁹⁾ . ومن المحتمل أن أوّل من ردّ على هذه الرسالة هو أبو جعفر بن الخراز ، الذي وجهت إليه الرسالة فهي تتضمن هجاء ، إضافة إلى مهاجمة قومه العرب ، ولكن لا تشير المصادر إلى مثل هذا الردّ المفترض . وعلى أي حال ، هناك ردود كثيرة ، منها ما وصل إلينا ،

(35) المصدر نفسه : 252/3 .

(36) المصدر نفسه : 252/3 .

(37) العبادي ، المرجع السابق ، ص 30 .

(38) ألف باء : 353/1 .

(39) عباس ، المرجع السابق ، ص 172 .

ومنها ما أشير إليه في المصادر ، ولم يصلنا . وتدل هذه الردود جميعا على قوّة التيار العربي في المغرب والأندلس واستمراره ، وعدم السكوت على ما جاء في الرسالة لفترة قد تصل إلى قرنين من الزمن .

ومن معاصري ابن غرسية الذين ردوا عليه ، أبو جعفر أحمد بن الدودين البلسني ، الذي كان معاصراً أيضاً لابن بسام الشنتريني صاحب كتاب « الذخيرة » . وقد التقى به هذا الأخير سنة 477 هـ/1084 م ، وأخبره برسائله التي ردّ فيها على أبي عامر أحمد بن غرسية .⁽⁴⁰⁾ وجاءت هذه الرسالة في لهجة قويّة ، تبتدئ بإضفاء أشنع الصفات وأخزاها على ابن غرسية ، الذي يستحق الصلب على بابه جوابا على ما فعله بحق العرب ، كما يرى ابن الدودين . ولكنه يأسف لعدم وجود رجال ذوي حمية وهمّة ليعابوه على ما تورط فيه . بعد هذا يبدأ ابن الدودين البلسني في مناقشة ابن غرسية نقطة نقطة ، وصرف المعايير والأوصاف التي ألصقها بالعرب ، ودفعها وإرجاعها إلى العجم . من ذلك مثلاً قوله : « وأما وصفك قومك أنهم مُجَدّ ، تُجَدّ شُمُخ ، بُدُخ ، عُرق ، عُرف في الأنساب الصّحيحة ، فهيهات ذلك منهم ، تلك صفات قومنا العرب ذوي الأنساب ، والأحساب ، والعلوم ، والحلوم ، أولي اللسن ، والبيان واللحن ، والإسهاب في الصواب ، والحكمة وفضل الخطاب ، فُرسان الإعراب ، وأرباب القباب ، ومُعَمِّلِي الصّوارم والجِراب ... »⁽⁴¹⁾ . كذلك يسخر ابن الدودين مما أشار إليه ابن غرسية من العلوم التي نسبها إلى العجم ، فيقول « وأما فخرك بعلمهم الشرائع ، فمن أبدع البدائع ... وجهلهم بذلك أَوْضَحُ من أن يُشَرَحَ ، وأبين من أن يُبَيَّنَ ... »⁽⁴²⁾ . ثم يصحح له بعض المفاهيم فيما نسبته إلى العرب ، وينزع عن قوم ابن غرسية صفات الفروسية التي ألحقها بهم ، ويسهب في ذلك ، اذ يجد المجال واسعا للحديث عن تراث العرب وتاريخهم في الفروسية : « مجالسهم السُّروج ، وريحانهم الوُشيج ، ومُوسيقاهم رنات الرُّدَيْنِيَّات ... »⁽⁴³⁾ . ويختتم ابن الدودين رسالته بتقريع ابن غرسية ، معيبا عليه جهله وعصبية التي كشفت

(40) ابن بسام المصدر السابق ، ق 3 ، م 2 ، ص 703-704 ؛ وانظر : نص الرسالة في مخطوط الأسكوريال المشار إليه سلفا ؛ ونوادير المخطوطات : 302/3-308 ؛ ابن بسام ، المصدر السابق ، ق 3 ، م 2 ص 715-722 .

(41) نوادر المخطوطات : 307/3 .

(42) المصدر نفسه : 306/3 .

(43) المصدر نفسه : 307/3 .

عورات قومه الأعاجم » وما كان أغناك يا كشاجم ، عن كشف عورات آلك الأعاجم ، لكن ضعف نظرك، حدّك إلى هذرك، وسوء أدبك ، وافى بك على عطبك ، نسأل الله سترًا يمتدّ ووجها لا يُسودّ» (44) .

وقد رد على ابن غرسية أيضا أحد الأدباء قريبي العهد به ، وهو أبو الطيب عبد المنعم ابن منّ الله القروي المتوفى سنة 493 هـ / 1099 م (45) وكان عنوان رسالته هو : «حديقة البلاغة ودوحة البراعة المورقة أفنانها ، المثمرة أغصانها ، بذكر المآثر العربية ، ونشر المفاخر الإسلامية ، والردّ على ابن غرسية فيما ادعاه للأُمم الأعجمية» (46) . وقد ابتدأ ابن منّ الله ردّه بذكر فضل العرب على ابن غرسية ، حيث ربّوه صغيراً ، وعلموه لغتهم ، وثقّفوه بثقافتهم ، لكنّه أنكر هذا الجميل ، واستعمل هذه اللغة للهجوم عليهم « فأخبرني عنك أما كانت للعرب يدٌ تشكرها ، أو مِنّةٌ تذكرها . أما جبرّت نقيصتك ، أو رفعت حسيستك ... ألم تُربك فيها وليداً ، أما أنطقنك بعد للعجمة ، أما أسلقنتك بعد اللكنة ، حتى إذا اشتد كاهلك ، وعلم جاهلك ، وقوي ساعدك ، ورقى صاعدك ، كفرت نعمتها لديك ، ونثرت عصمتها من يدك ، وأخذت تطاولها بأرسانها ، وتقاولها بلسانها ...» (47) .

ويشير ابن منّ الله في ردّه على رسالة ابن غرسية ، على نمط صاحبه ابن الدودين ، في تناول كلّ القضايا التي أثارها الأوّل ضد العرب ، ويحاول أن يفند اتهاماته ويصدها ، وينفذ إلى أمور دقيقة في هجومه على العجم ، كالقول بعدم وجود اسم للسّخاء بالرومية ، ولا رسم للوفاء في العجمية ، ويشير إلى تعيير ابن غرسية للعرب بالنفاق الجرب ، فيقول : « ... سَعَرُوا عليكم نار الحرب بتلك الأنيق الجُرب ، فَكَسَرُوا كياسرتكم ، وَقَصَرُوا قياصرتكم ، وأحمدوا نار صولتكم وَمَحَوْا آثار دولتكم ...» (48)

(44) المصدر نفسه : 308/3 .

(45) أبو القاسم خلف بن عبد الملك ابن بشكوال ؛ كتاب الصلة ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، 1966 : 392/2 ، ترجمة رقم (840) .

(46) البلوي ، المصدر السابق : 350/1 ؛ وأنظر نص الرسالة في نوادر المخطوطات : 310/3-330 ؛ ابن بسام ، المصدر السابق ، ق 3 ، م 2 ، ص 746-722 .

(47) نوادر المخطوطات : 310/3-311 .

(48) المصدر نفسه : 312/3 .

يفأخرهم بالطعام والشراب ، بل بالطعان والضراب . وهنا يجد مجالا رحباً للإشارة إلى أمجاد العرب في فتوحاتهم ، ووصولهم إلى ما وراء النهر ، وقهرهم للساسانيين والبيزنطيين ، ومهاجمتهم للقسطنطينية . كذلك يغمز ابن من الله ابن غرسية بالإشارة إلى عدم وضوح معاني النخوة والشرف والغيرة لدى قومه بقوله : « لا تُغيرون ولا تُغارون ولا تمنعون ولا تمتنعون ، قلوبكم قواء ، وأفئدتكم هواء ، وعقولكم سواء ، قد لانت جلودكم ، ونهتد بُهودكم ، واحمرت خدودكم ، تحلقون اللحى والشوارب ، وتتهادون القُبُل في المشارب ... والمباضعة عنديكم كالمراضعة ، مافي السُكر عندكم نُكر ، تُبيحون ولوج العلوج على بدور الخدور ... » (49) . ثم يكرس ابن من الله صفحات عديدة من رسالته في الرد على اتهامات ابن غرسية التي تتضمن عدم معرفة العرب للعلوم ، فيشير إلى فضلهم ومآثرهم في كثير من المعارف ، وعدم نبوغ الأعاجم فيها . ويختتم رسالته بالهجوم على ما ادعاه ابن غرسية من مدح للرسول عليه الصلاة والسلام ، مبيّناً كذبه وافتراءه ومحاولته المكشوفة لتغطية موقفه المعادي للعروبة والإسلام .

استمرت رسالة ابن غرسية تُثير نخوة العرب وكتابهم ، ليس في الأندلس فحسب ، بل في المغرب أيضاً ، حيث تصدّى أبو يحيى بن مسعدة ، وهو أحد الشيوخ الأجلاء الذين عاشوا في ظل دولة الموحدين ، للردّ عل رسالته . ويمكن أن تقدّر تاريخ رسالة ابن مسعدة استنادا الى عصر محمد بن عبد الله بن تومرت الملقّب بالمهدي والمتوفي سنة 534 هـ/ 1139 م ، والخليفة عبد المؤمن بن علي المتوفي سنة 557 هـ/ 1169 م ، حيث أشار ابن مسعدة إليهما في الرسالة (50) . وتعد هذه الرسالة من أطول الرسائل التي وصلتنا في الرد على ابن غرسية (51) وهي لا تختلف من حيث المحتوى والمضمون عن الرسالتين المذكورتين أعلاه ، حيث حاول فيها ابن مسعدة أن يفند اتهامات ابن غرسية ، ويرد عليها بمثلها ، مبيّناً معائب الفرس والعجم عامة . ولكن هذه الرسالة تختلف عن سابقتيها من حيث الأسلوب ، واستخدام التعابير المكشوفة في كثير من الأحيان ، إمعاناً في الحطّ من ابن غرسية ، والتصديّ الحازم لما جاء في رسالته .

(49) المصدر نفسه : 313/3 .

(50) نوادر المخطوطات : 290/3-291 .

(51) المصدر السابق : 291-256/3 .

وهناك رسالة أخرى⁽⁵²⁾ ، لكنها مجهولة المؤلف ، تعرضت أيضا إلى ما أثاره ابن غرسية الشعبي في رسالته . ويرجح الأستاذ عبد السلام محمد هارون⁽⁵³⁾ ، أن مؤلفها هو ابن مسعدة نفسه للشباب الشديد بين أسلوبَي الرسالتين . ولكن أبا البقاء صالح بن شريف الرندي (ت 684 هـ/1285 م) ينسب في كتابه « روض الأنس ونزهة النفس » ، هذه الرسالة إلى أبي العلاء بن الجنان الشاطبي ، وهو جد أبي الوليد بن الجنان الذي كان شاعرا ، ورحل إلى الشرق وصاحبه ابن سعيد المغربي في مصر والشام⁽⁵⁴⁾ . والرسالة قصيرة تتناول أهم المحاور التي ركز عليها ابن غرسية ، وترد عليها . وقد أشار المؤلف في بدايتها إلى هوية ابن غرسية ووصفه بالشعوبي قائلا : « لشد ما استهواك أيها الشعبي شيطانك... »⁽⁵⁵⁾ . ثم يستمر بعد ذلك في تفنيد أكاذيبه وتهمه التي ألصقها بالعرب .

وهناك مجموعة أخرى من الردود العربية على رسالة ابن غرسية الشعبية ، لكنها لم تصل إلينا مع الأسف ، باستثناء آخر رسالة ، وهي من إنشاء أبي الحجاج يوسف ابن محمد المالكي الأندلسي المعروف بابن الشيخ البلدي (ت 704 هـ/1207 م) . ويعود إليه الفضل في التعريف ببعض هذه الردود التي فقدت ، ومنها رسالة الفقيه أبي مروان عبد الملك بن محمد الأوسي وعنوانها « رسالة الاستدلال بالحق ، في تفضيل العرب على جميع الخلق ، والذب والانتصار ، لصفوة الله المهاجرين والأنصار »⁽⁵⁶⁾ . ومنها رسالة الكاتب ذي الوزارتين أبي عبد الله بن أبي الخصال الغافقي (ت 540 هـ/1145 م) الموسومة « خطف البارق وقذف المارق في الردّ على ابن غرسية الفاسق في تفضيله العجم على العرب وقرعه النبع بالغرب » . ومن المتأخرين الذين أشار إليهم البلوي أيضا ، الفقيه المحدث أبو محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم الخزرجي الغرناطي ، الذي يعرف بابن الفرس (ت 597 هـ/1200 م) وقد رأى البلوي رسائل هؤلاء الأدباء ، لكنه لم يذكر عنوانا لرسالة عبد المنعم الغرناطي ، واكتفى بالنسبة إلى رسالة ابن أبي

(52) المصدر السابق : 294/3 - 299 .

(53) المصدر السابق : 227/3 .

(54) المقرئ : فنج الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق ، إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، 1968 : 120/2 ؛ عبد القادر زمامة ، « كتاب روض الأنس ونزهة النفس لأبي البقاء صالح بن شريف الرندي (1204/601 - 1285/684) مجلة معهد المخطوطات العربية ، م 18 ، ج 1 ، 1972 ، ص 334-335 .

(55) المصدر نفسه : 294/30 .

(56) البلوي ، المصدر السابق : 350/1 .

الخصال بالقول « فأما ابن أبي الخصال فأُخِنَى عليه [يقصد على ابن غرسية] وصال ، بحجاج أمضى من النضال ، ماله عنها انفصال » (57) .

ويشير البلوي (58) ، إلى أنّه اطلع على جميع هذه الردود وعلى كلام ابن غرسية في رسالته «الدّالة على فساد القول وفسالته التي فضل فيها العجم على العرب وأراد أن يُعرب فأعجم » فاستفزه ذلك وأغاظه ما اقترفه ذلك الجاهل ، فرأى من الواجب عليه أن يدلّو بدلوه في الرد والانضمام إلى النخبة الخيرة من الكتّاب المدافعين عن القيم العربيّة ضدّ الهجمة الشعوبية في الأندلس . فأنشأ ما يشبه المقامة الهزلية التي يختلط فيها الشعر بالنثر (59) . وقد ركز في ردّه على كبر فعلة ابن غرسية ، ومدحه غير أهل ملته من الأكاسرة والقيصرة ، كما تعجب من معاصري ذلك الزمن ، وكيف أنهم سمحوا له بما اجتراً عليه ، ولم يعاقبوه على ما ارتكبه بحق العرب .

وإن كان جميع من أشرنا إليهم قد اختاروا أسلوب الرسالة في الردّ على ابن غرسية ، فقد انفرد الشاعر أبو بكر يحيى بن محمد المعروف بـ الجزار السرقسطي ، الذي عاش في عصر ابن غرسية ، في الردّ عليه شعرا في قصيدة وصلنا منها عشرة أبيات مطلعها :

يَا مُفْتِيّاً بَانْتِقَاصِ الشَّرْعِ أَعْصَارَا إِنْ كُنْتُ رَيْحًا فَقَدْ لَاقَيْتُ إِعْصَارَا

ويحتمل ان تكون القصيدة أطول من ذلك ، نظرا إلى طول نفس هذا الشاعر . ومهما يكن ، فإنّ نبرة الإباء والعزة واضحة في الأبيات الباقية ، وفيها يحرض الجزار الناس على التّهوض بحماية الدّين إزاء تبجّح ابن غرسية (60) .

إن ما عُرض في هذا البحث يدلّ دلالة قاطعة على أنّ الحركة الشعوبية ، كانت حركة واحدة ، ذات مفاهيم معروفة ومحددة ، لا يختلف فيها الشعوبيون في المشرق أو في المغرب والأندلس . فقد تعمّدوا الإساءة إلى العرب ، وذلك بمحاولة طمس معالم

(57) المصدر نفسه : 351/1 .

(58) المصدر نفسه : 350/1-355 .

(59) هارون ، نواذر المخطوطات : 40/3 .

(60) أبو بكر يحيى بن محمد المعروف بالجزار السرقسطي ، روضة المحاسن وعمدة المحاسن ، صنعة أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن مطروح السرقسطي ، تحقيق ودراسة ، منجد مصطفى بهجت ، بغداد : مطبعة المجمع العلمي العراقي 1988 ، ص 46 ، 174-175 .

حضارتهم ، وردّ كل ما هو خير وجيّد من شيمهم إلى العنصر الأعجمي . ولم يضع شعوبو الأندلس آية حواجز أو حدود بينهم وبين أولئك الذين أنكروا فضل العرب في المشرق ، بل فاخر ابن غرسية بأمجاد الأكاسرة ، والقياصرة ، على الرغم من البعد الزمني والجغرافي الذي يفصله عنهم . وتبين لنا أيضاً أنّ العرب في المغرب والأندلس ، شأنهم في ذلك شأن إخوانهم في المشرق ، لم يسكتوا على تلك الادعاءات والتهجمات الشعوبية ، بل قاوموها بكل ما أوثروا من قوة . وعندما أفل نجمهم السياسي ، لم يقف مفكروهم وأدباؤهم مكتوفي الأيدي ، بل أمطروا دعاة الشعوبية وابلا من الرسائل التي ترد على ما ذكره ابن غرسية ، وتكيل الصاع صاعين لأولئك الذين جحدوا فضل الأمة العربية عليهم ، وأنكروا دورها في خدمة الإنسانية عامة %

الجديد في المكتبة الأندلسية

- (1) أبو الوليد إسماعيل بن محمد الحميري الإشيلي (ت 440 هـ/1048 م) : البديع في وصف الربيع . تحقيق د. عبد الله عبد الرحيم عسيلان . ط 1 جدّة 1987 .
- (2) ابن حارث الخشني الأندلسي : أصول الفتيا في الفقه على مذهب مالك . تحقيق : أ. محمد أبو الأجنان ، وأ. محمد المجذوب وأ. عثمان بطيخ . ط تونس 1985 .
- (3) شعر أبي عبد الله بن الحدّاد الأندلسي (ت 480 هـ/1087 م) جمع وتحقيق وتقديم منال منيزل . ط 1 بيروت 1985 .
- (4) القلصادي البسطي : رحلته : تحقيق أ. محمد أبو الأجنان ط تونس 1985 .
- (5) د. لوئي لوباث — بارالت : أثر الإسلام في الأدب الإسباني من العصور الوسطى إلى الوقت الحاضر تعريب الأستاذ محمد نجيب بن جميع تقديم ومراجعة د. عبد الجليل التميمي . (منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات . وكلية العلوم الإنسانية بجامعة بورتوريكو) ط تونس ماي 1990 .

6°) Maria Jesus Rubiera i Mata : Introducció a la literatura Hispano-'Arab (Universitat D'Alacant 1989).

7°) Maria Jesus Rubiera i Mata : Bibliografia de la literatura Hispano-Arabe (Universidad de Alicante 1988).

8°) Aljamía-2 : Bolletin de Información Bibliográfica (Mudejares-moriscos - Textes Aljamiados Filologia Arabo - Románica) Universidad de Oviedo : Departamento de Filologia clásica y Románica 1990.